قراءة في تفسير ابن كثير

سورة الحشر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نبدأ، متوكلين على الله، في إكمال ما تدارسناه من سورة الحشر؛ هذه السورة العظيمة التي مبناها على اليقين بعظمة رب العالمين، وبأنه -سبحانه وتعالى- هو القوي العزيز، الذي كتب أن يغلب هو ورسله -سبحانه وتعالى- فهو الظاهر كما أنه هو الباطن، وهو (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، وهو (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وهو شديد العقاب كما تكرر في السورة.

ننظر إلى خاتمة الآية الرابعة من سورة الحشر فنجد أن الله يختمها بهذا التأكيد (إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ثم ننظر للآية السابعة فنجد أن الله يختمها بهذا التأكيد (إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ). فهذا في قلب المؤمن يقين أنه -سبحانه وتعالى- الظاهر على خلقه، العالي على عرشه، العالي -سبحانه وتعالى- في صفاته، له العلو المطلق -سبحانه وتعالى- له العلو في الصفات، وله العلو في الأفعال، فأفعاله -سبحانه وتعالى- كلها حكمة، وكل أفعاله -سبحانه وتعالى- لخلقه آية لمن تدبر هذه الأفعال.

ثم إن الناظر في ملكوت الله، العارف أن الملك ملك الله يعلم أن الناس في أمن لأن الله مؤمّنهم، والناس في رزق لأن الله رازقهم، ولولا أن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض لوقعت عليهم، فهو -سبحانه وتعالى- الظاهر وهو (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وهو بكل شيء عليم وهو (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سبحانه وتعالى.

عرفنا هذا من خلال السورة وعرفنا أيضًا أنه -سبحانه وتعالى- كاتب الأرزاق للخلق وأنه مشرع شرع يعين الخلق على الاستفادة من هذه الأرزاق. مقصد هذا الشرع الذي شرعه رب العالمين: ألا يكون المال دولة في أيدي الأغنياء، فيبقى الفقراء فقراء دائمًا ويبقى الأغنياء أغنياء دائمًا، بل أحل لهم الصدقة وجعل باب الفيء من الأبواب التي تغنيهم كسرًا لتناول المال في دائرة ضيقة ورفعًا للحرج من نفوس الفقراء أن يقفوا عند باب الأغنياء ونشرًا في الأمة للأبواب التي ينتفع بها المجتمع عمومًا؛ لذلك سنقرأ الآية السابعة مرة أخرى كلمة كلمة ونؤكد على المعاني التي فيها لأهمية هذه الآية، فهذه الآية مهمة جدًا في فهم المؤمن وفي معرفة مسألة الأرزاق، وقد مر معنا، لكن نؤكد على هذا المعنى، سنرى هذا الفيء لمن يكون وسنرى الحكمة في ذلك:

(مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ) نلحظ أن اسمه "فيء" وهو اسم عجيب، لأن الفيء يأتي بمعنى: العودة والرجوع، وهذا مال الله كان في يد الكفار فأعاده الله إلى أهل الإيمان، كان بيد الكفار ظلمًا وعدوانًا، فلما رجع إلى أولياء الله وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم، هل معنى ذلك أن هذا المال لـمَّا فاء إليهم، كان من أجل أن ينفقوه على شهوات الدنيا؟ سيتبين الآن (مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) الفيء من أهل القرى الكافرة (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) أولًا (فَلِلَّهِ) يعني الجهاد في سبيل الله، هذه أموال أتت من الفيء فيوضع في سبيل الله.

(وَلِلرَّسُولِ) هذه الأموال خاصة لرسول الله لقيامه بأمر الله، وكان -صلَّى الله عليه وسلَّم- يأخذ نفقة أهله عامًا وما بقي يرده في سبيل الله، هنا يتبين أن هذا المال الذي أغنى الله به المؤمنين يصرف على مصارف تنفع عامة المسلمين؛ (لِلَّهِ) في سبيل الله، (وَلِلرَّسُولِ) لأن الرسول متفرغ للقيام بالأمة فهذا نصيبه من أجل أن ينفق على أهله.

وأيضًا (وَلِذِي الْقُرْبَىٰ) من قرابة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذين تلزمه نفقتهم.

(وَالْيَتَامَىٰ) ومثلهم (وَالْمَسَاكِينِ) وهنا يظهر التكافل الاجتماعي في الأمة، فالأمة تتحمل مسؤولية اليتامى والمساكين، لا يتركون مشردين في الشوارع فيقال لهم: "أنتم الذين لم تأتوا لأنفسكم بالمال أو ما اجتهدتم أو ما عملتم!" هذه مسؤولية الأمة.

(وَابْنِ السَّبِيلِ) والمنقطع في سفره يعينونه حتى يبلغ داره.

وهذه كلها مصارف بالعموم دون اختصاص شخص أو طائفة؛ ولذلك قال الله -عزَّ وجلَّ- هذه العلة بعد ما عرفنا المصارف: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ) وقد ناقشنا هذه الجملة وتبينت لنا والحمد لله، وهي جملة عظيمة في الاقتصاد، وقد كتب متمم تفسير أضواء البيان كلامًا جميلًا في هذه الآية: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) وهذه الجملة من الآية لها مناسبة عجيبة في هذا الموطن؛ لأن هؤلاء الصحب الكرام خرجوا وبذلوا، وأمرهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يحرقوا النخل فأحرقوه، وحاصروا أرض هؤلاء، ثم إذا انتهى الأمر، قال لهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كل هذا الذي ربحه المسلمين من

أموالهم إنما في هذه المصارف. فهنا يمكن أن يكون في النفس شيء؛ لذلك عالجه رب العالمين بهذه الجملة من الآية، أمرهم أن ما آتاهم الرسول عليهم أن يأخذوه وما نهاهم عنه الرسول عليهم أن ينتهوا عنه، وعليهم أيضًا أن يتقوا الله (وَاتَّقُوا اللَّهَ).

موطن الآية لا بد من التنبه له، فهم منتظرون المغانم، بذلوا النفوس وصبروا حتى يأتيهم هذا المال، هم يقاتلون في سبيل الله لكن هذه الغنائم تثير النفس لتأخذ جزء منها، لكن رب العالمين أجابهم إجابة تقطع كل المطامع، وهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، وظهر صدقهم في قبولهم لهذا التشريع.

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) هذه الخاتمة مناسبة لهذا الأمر الذي أمروا به وهذا النهي الذي نهوا عنه، وأنهم ليس لهم في هذا الذي أفاء الله -عزَّ وجلَّ- على رسوله به، ليس لهم فيه شيء، إنما هو ملك للرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- يتصرف فيه كيف يشاء.

الله -عزَّ وجلَّ- دله أين يضع هذا المال، فتصرف الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- وقسمه على من أمره الله -عزَّ وجلَّ- بقسمته عليهم، فلم يكن يتصرف فيه تصرف المالك بشهوته

وإرادته فيعطي من أحب ويمنع من أحب، وإنما كان يتصرف به تصرف العبد المأمور الذي ينفذ ما أمره به سيده ومولاه، فيعطي من أمر بإعطائه ويمنع من أمر بمنعه؛ لذلك صرح النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فقال: «ما أُعطيكم ولا أمنعُكم، أنا قاسِمٌ أضعُ حيثُ أُمِرْتُ»[1] يعني عطاؤه ومنعه وقسمه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ائتمارًا بأمر الله، ونحن على يقين أن نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- يهتدي بهدي الله، والله خيره بين أن يكون عبدًا رسولًا وبين أن يكون ملكًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، والفرق بين العبد الرسول والملك الرسول:

أن العبد الرسول لا يتصرف إلا بأمر سيده ومرسله.

والملك الرسول له أن يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، كما هو الحال في سليمان، عليه السلام، في سورة ص قال تعالى: (هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) أعطِ من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك، هذه المرتبة عرضت على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكنه رغب عنها إلى مرتبة العبودية المحضة التي معناها أنه يتصرف -صلَّى الله عليه وسلَّم- تصرفًا محسوبًا على أمر مولاه في كل دقيق وجليل، وكان الفيء مثال ذلك؛ أن تصرفه بالفيء كما أمر ربه، هو يملكه

---

[1]() أخرجه البخاري (3117).

لكن ملكه يخالف حكم غيره من المالكين؛ لذلك كان الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ينفق مما أفاء الله عليه، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، على نفسه وأهل نفقته سنة ويجعل الباقي في السلاح، يعد لسبيل الله، هذا أمر آخر غير الزكوات والغنائم والمواريث، فهو -صلَّى الله عليه وسلَّم- يفعل ما أمره ربه به، ونؤكد على ذلك ليزداد يقيننا بأن رسولنا الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم- ما طمع في الدنيا ولا أحبها، أبدًا والله، إنما عمل فيها كما أمره ربه -سبحانه وتعالى- وليس في هذا الأمر خلاف عند أهل الإيمان، لكن فيه زيادة إيمان.

وسنرى هذا بوضوح حتى في قلوب الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، كنا وصلنا إلى الآية التاسعة وعدنا إلى الآية السابعة لنؤكد هذا المعنى؛ أن الفيء من عطية رب العالمين، وهو -سبحانه وتعالى- الظاهر الذي يملك كل شيء، ويصرِّف كل شيء على ما شاء وقدر، ويحكم في كل شيء، وكان من حكمة الفيء؛ المال الذي كان في أيدي الكفار ابتلاء واختبارًا ثم عاد لأوليائه -أيضًا- ابتلاء واختبارًا.

نقرأ الآية الثامنة والتاسعة ثم نبدأ بآخر الآية التاسعة:

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) بيان للأصناف التي ذكرت في الآية السابعة، (فَلِلَّهِ) هذا المصرف للجهاد في سبيل الله (وَلِلرَّسُولِ) لأهل بيته ولقرابته ولليتامى والمساكين، والمساكين هم ليسوا كل المساكين إنما فقراء المهاجرين، بيّن -عزَّ وجلَّ- كما ذكر ابن كثير حال المستحقين لمال الفيء، من هم؟ خاصة الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وهم المهاجرين. هذا الأمر يمكن أن يثير قلوب الأنصار الذين ساعدوا المهاجرين واستقبلوهم، وفتحوا لهم ديارهم، وأعطوهم، وكما هو معلوم، شاركوهم في كل شيء. لكن رب العالمين بيّن أن هذه ليست صفة الأنصار، الذين استقبلوا المهاجرين، وعطاء الله للمهاجرين، وأن الله خصهم بمال الفيء لم يثر نفوس الأنصار، بل على العكس كانوا يرون أن هذا خير.

فوصفهم الله -عزَّ وجلَّ- أولًا بأنهم (تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ)، وهذا وصف عظيم للمهاجرين كونهم (تَبَوَّءُوا

الدَّارَ) أمر واضح، يعني أن هذا مكانهم ودارهم وهم فيها مستوطنين، لكن عطف على تبوئهم الدار تبوئهم الإيمان، معنى ذلك أن هؤلاء متمكنين من الإيمان، كما أنهم متمكنين من الدار أنها دارهم، كذلك هم متمكنون من الإيمان، وهذا شأن عظيم في مدحهم، ما وصفهم؟ وصفهم أنهم يحبون من هاجر إليهم، ووصفهم أيضًا أنهم سليمو الصدر، لا يجدون في صدورهم أي شأن حتى أن الله سماه "حاجة"، ليس في قلوبهم ولا حاجة، لا يجدون في أنفسهم حسدًا لأهل الإيمان ولو كان بالمهاجرين شيء من الخصاصة، كما سيتبين معناها من كلام ابن كثير، وسنرى هنا كيف كان الإيثار صفة للأنصار، وكيف اختار الله لرسوله هؤلاء القوم الذين يكونون ناصرين لدينه سبحانه وتعالى.

نقرأ كلام ابن كثير من حيث توقفنا أمس:

(وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا) أَيْ: وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَدًا لِلْمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ، وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرُّتْبَةِ.

قَالَ: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: (وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً) يَعْنِي: الْحَسَدَ.

هذا وصفهم، وصف الأنصار أنهم لا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين، ما الذي أثار هذا الأمر؟ الفيء أنه يقسم على فقراء المهاجرين وليس للأنصار منه نصيب، وهم شاركوا في الحصار وشاركوا في كل شؤون الإسلام فكيف يخص هؤلاء؟ لله -عزَّ وجلَّ- الحكمة البالغة في ذلك، لكن مع حكمة الله فقد رزق الله هؤلاء القوم طهارة في نفوسهم فلم يجدوا في أنفسهم حسدًا للمهاجرين، لا على المنزلة والشرف، ولا على التقديم في الذكر والرتبة، ولا على مال الفيء

يمكن أن يقول أحد: "أنتم هاجرتم صحيح، لكن لولا أننا آويناكم ما كان الدين نُصر" لكنهم ما قالوا هذا القول، ولا قالوا "نحن المقدمون ونحن الناصرون" بل ما وجدوا في أنفسهم فيما فضل الله عليهم من أي شأن، ما وجدوا في أنفسهم حسدًا، وهذا من طهارة القلب.

هذه الآية تدل ضمنًا أن التفضيل للأنداد، للمشتركين في عمل واحد، أن هذا الأمر يثير الحسد. الإخوة أو الزملاء في عمل واحد، أو أي أحد يشترك مع غيره في صفة، فإن تفضيل بعضهم على بعض يسبب حسدًا، كأن هذا هو الشيء الطبيعي؛ لذلك أحسن شيء في مثل هذه المواقف أن الإنسان

الذي يدير مثل هذه الأعمال، إذا اضطر لتفضيل أحد على أحد يبيّن العلة، يبيّن لماذا فضّل هذا على ذاك.

بمعنى آخر: لا تتوقع أن يكونوا أندادًا مشتركين في شأن واحد ويحصل بينهم تفاضل ثم لا يحصل بينهم حسد، هذا توقع في غير مكانه، إنما الطبيعة الإنسانية أن الأنداد والمتشاركين في شأن واحد، إذا قدم أحدهم على الآخر بدون علة وبدون بيان يكون هذا مثيرًا للحسد؛ ولذا حين تريد أن تختبر نفسك من جهة طهارة القلب، أو وقوع الحسد، لا تتكلم أو لا تقارن نفسك أو لا تفكر في ميزان بعيد عنك. لو فلان البعيد قد حصل على كذا وكذا وهو ليس في وسطك، وليس ندك، وليس في موضوعك، تقول: **"أنا لا أحسده!"** ليس هذا المثير للحسد، ما يثير الحسد أحد اشتركت معه في شأن، في وظيفة، في جوار، في عمل، حتى لو في تطوع لله، لو وجدتهم يمدحونه ولا يمدحونك ويعطونه ولا يعطونك لوجدت في نفسك حرج، هذه هي الطبيعة الإنسانية، ومن يدير يجب عليه أن يلاحظ هذه الطبيعة الإنسانية، والاستثناء هم الأنصار، هم استثناء من هذه الطبيعة الإنسانية، بل هم أعلى من أن يحسدوا، هم وصلوا إلى درجة الإيثار كما سيتبين لنا. قال ابن كثير -رحمه الله- :

(مِمَّا أُوتُوا) قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي فِيمَا أَعْطَى إِخْوَانَهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ. وَمِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا جُلوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فَقَالَ: "يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنطُف لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّق نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- مِثْلَ مَقَالَتِهِ أيضًا، فطلع ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالَتِهِ الْأُولَى فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَلَّا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فعلتُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثَّلَاثَ اللَّيَالِي فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعارّ تَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ، ذَكَرَ اللَّهَ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَب وَلَا هَجْر، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مرَار يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ

رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ الْمِرَارَ فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عملك فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رسولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أجدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أحسدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطَاقُ.

استشهد ابن كثير بهذا الحديث على بيان أثر طهارة القلب، وأن طهارة القلب تسبق بصاحبها مع قليل العمل، هذا الحديث ذكره ابن كثير وقال: "وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، عَنْ سُوَيد بْنِ نَصْرٍ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ مَعْمَرٍ بِهِ وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ، لَكِنْ رَوَاهُ عُقَيْلٌ وَغَيْرُهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَنَسٍ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ." ذكر أن فيه علّة؛ أن فيه مجهول، وقال: "الله أعلم بصحة الحديث" لكن بغض النظر عن صحة الحديث فإن هذا حق معلوم من مجموع النصوص، بل من هذا الدليل الصريح في آية سورة الحشر بأن هؤلاء تبوأوا الدار وتبوأوا الإيمان، أخذوا منه منزلة ثابتة في الإيمان، والسبب: ما كان في صدورهم من طهارة على المهاجرين، فطهارة القلب مقصد شرعي؛ لأن تزكية النفس وتطهيرها من الأعمال التي يحبها الله وأرسل الرسول

لأجل أن يعلمنا كيف نزكي أنفسنا، فكيف لا يكون أمرًا مهما؟ كيف لا يكون مقصدًا لكل مؤمن؟ كيف لا تكون طهارة القلب ونقاؤه على أهل الإسلام وعدم الغش وعدم الحسد، كيف لا تكون أمرًا مهما يسبق بصاحبه؟ بلى، والله إنه أمر في غاية الأهمية ويسبق بصاحبه. ونحن قادمون على هذا الشهر المبارك الذي نرجو أن تضاعف لنا فيه الحسنات وتغفر لنا فيه الزلات لا بد أن نبدأ بتطهير القلب من الحقد والغش والحسد، وما لنا إلا أن نسأل رب العالمين أن يطهر قلوبنا، وما لنا إلا أن نتفكر في سرعة الدنيا وسرعة انقضائها وسرعة وقوفنا بين يدي الله، وما لنا إلا أن نتذكر أن عدونا الشيطان هو الذي يحرش بيننا، هو الذي يكبر الكلمة الصغيرة، ويعظم الموقف البسيط، فنسأل الله أن يطهر قلوبنا وأن يجعل قلوبنا مكانًا يستقر فيه الإيمان. وهذه علاقة طردية لا تتخلف أبدًا؛ الإيمان يستقر في القلب الطاهر، والإيمان يُطرد من القلب الملوث، فكلما تطهر القلب كلما وجد الإيمان طريقه إلى القلب، إلى أن يتبوأ الإيمان في القلب، إلى أن يتبوأ الإنسان الإيمان فيرتفع فيه درجات، اللهم إنا نسألك من فضلك، وهذا نعيم في الدنيا، نسأل الله أن يذيقنا إياه في الدنيا ونكون من أهله في الآخرة، اللهم آمين.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: (وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا) يَعْنِي (مِمَّا أُوتُوا) الْمُهَاجِرُونَ. قَالَ: وَتَكَلَّمَ فِي أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ تَرَكُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَخَرَجُوا إِلَيْكُمْ". فَقَالُوا: أَمْوَالُنَا بَيْنَنَا قَطَائِعُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "أَوَ غَيْرُ ذَلِكَ؟ ". قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "هُمْ قَوْمٌ لَا يَعْرِفُونَ الْعَمَلَ، فَتَكْفُونَهُمْ وَتُقَاسِمُونَهُمُ الثَّمَرَ". فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

هذا النقل من ابن كثير يدل على أنهم وقع في نفوسهم حرج، فكلموا رسول الله، يقول: "وَتَكَلَّمَ فِي أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ" بالآية السادسة، أن هذا قد أفاءه الله على رسوله، وأنتم لم توجفوا عليه من خيل ولا ركاب؛ لا ركبتم ولا أسرعتم بركابكم ولا قاتلتم، إنما هو فيء عاد إلى الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- بدون قتال. فما كان من الأنصار إلا أن عرفوا حق المهاجرين، وسكتوا عن ذلك وهم قد قالوا لرسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- هذا الكلام فلما أجابهم ما كان منهم إلا

التسليم، بل قال لهم الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ تَرَكُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَخَرَجُوا إِلَيْكُمْ". فَقَالُوا: أَمْوَالُنَا بَيْنَنَا قَطَائِعُ. لما أقبل المهاجرون على المدينة أخبرهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بحال إخوانهم المهاجرين، فهم بادروا على القطع من أموالهم للمهاجرين، فقال لهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "هذا لا يفيد المهاجرين لأنهم لا يعرفون العمل في النخل ولا في زرعه ولا في حصاده، لكن أنتم تكفونهم الأمر وهم يقاسمونكم الثمر" فرضوا بأن يعملوا ويقاسموهم الثمر، وهذا لم يؤد إلى كسل المهاجرين، لا، والله! بل كانوا في أحسن حال في معاونة الأنصار، وقد جعل الله -عزَّ وجلَّ- هذا المجتمع نموذجًا للإيمان، وكما سيتبين الآن إلى أي درجة وصل الأنصار في طهارة قلوبهم.

وَقَوْلُهُ: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) يَعْنِي: حَاجَةً، أَيْ: يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِيجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَبْدَءُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنه قَالَ: "أفضلُ الصَّدَقَةِ جَهدُ الْمُقِلِّ". وَهَذَا الْمَقَامُ

أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَف اللهُ بِقَوْلِهِ: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)[2]. وَقَوْلُهُ: (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)[3]

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةَ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ ". فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَهَذَا الْمَاءُ الَّذِي عُرض عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ أحوجَ مَا يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

هنا يبين ابن كثير في هذه الآية معنى الإيثار على أنفسهم، وأن هذا الإيثار إنما كان وهم بهم خصاصة، يعني وهم بهم حاجة، فيقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وقارن ابن كثير بين هذه الحال وبين الحال الذي أتى في سورة الإنسان: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) ويقول إن الذين يطعمون الطعام على حبه

---

[2] () الْإِنْسَانِ: ٨.
[3] () الْبَقَرَةِ: ١٧٧.

ربما لا يكون بهم خصاصة فيه، فقط يتصدقون وهم يحبون المال. لكن أعظم منهم الذي يتصدق وهو بحاجة إلى هذا الطعام، لكنه يؤثر غيره عليه، وأتى بأحسن نموذج على ذلك وهو موقف عكرمة وأصحابه -رضي الله عنهم جميعًا- يوم اليرموك لما عرض عليهم الماء فكان كل منهم يدفع به للآخر على أنه أحوج منه، وهو به خصاصة؛ هو محتاج إلى الماء، ربما هذه الشربة أعادت له شيء من القوة لكنه آثر أخوه، فكتب الله لهم في آخر لحظات حياتهم ما يسطره التاريخ من إيثارهم.

وأعظم من آثر وهو به خصاصة، وإن لم يكن من الأنصار، لكنه النموذج الأكمل في البشر بعد الأنبياء، وهو أبو بكر -رضي الله عنه- حيث دفع ماله كله وقت شعوره بحاجة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- والمسلمين إلى المال، وسأله النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: ما أبقيت لأهلك؟ قال أبقيت لهم الله ورسول الله. ثقة بالله، ويقينًا أن الله يعوض. والمقصود بالإيثار هنا: الإيثار بالمال، الإيثار بالأمور التي يشترك الناس فيها، ويشترك الناس في حظوظهم منها، فهذا الإيثار يكون نافعًا إذا كان الإنسان صادقًا.

الكلام عن الإيثار وتفاصيله يحتاج إلى لقاء منفصل من أجل ألا يضيع علينا تسلسل الأفكار، وإن شاء الله، عما قريب نقرأ كلامًا لابن القيم حول الإيثار خارج تسلسل اللقاءات.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا فُضيل بْنُ غَزوان، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيرة قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الجهدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ؟ ". فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيفُ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- لَا تَدّخريه شَيْئًا. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قوتُ الصِّبْيَةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصبيةُ العَشَاء فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ ونَطوي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ. ففعلَت، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فَقَالَ: "لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ، -عزَّ وجلَّ- -أَوْ: ضَحِكَ-مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ". وَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).

وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ غَزْوَانَ، بِهِ نَحْوَهُ. وَفِي

رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ تَسْمِيَةُ هَذَا الْأَنْصَارِيِّ بِأَبِي طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا من أروع الأمثلة المضروبة للأنصار في كونهم يقدمون غيرهم على أنفسهم، وهذا ضيف رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهذا الضيف كان بابًا للبركة على هذه الأسرة المسلمة من الأنصار، فإن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد دعا جلساءه بأن يضيف أحدًا هذا الضيف والوعد: رحمة الله، فكان نصيب هذا الأنصاري الذي كتب التاريخ قصته بآية سجل سبب نزولها فعله، بل أخبر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- عن صفة لله خص بها في هذا الموقف هذا الرجل، فقال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- : "لقد عجب الله، أو ضحك من فلان وفلانة." سبحان الله، ما أعظم هذه الحال! فأنزل الله -عزَّ وجلَّ- هذه الآية. هذا حال هذا الأنصاري وهذه صفة الأنصار اشتهرت عنهم.

وَقَوْلُهُ: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أَيْ: مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ.

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا دَاوُدُ بْنُ قَيْسٍ الْفَرَّاءُ، عَنْ عُبَيد اللَّهِ بْنِ مِقْسَم، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلم ظلماتٌ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُحَّ، فَإِنَّ الشّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ واستَحلُّوا مَحَارِمَهُمْ". انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، فَرَوَاهُ عَنِ القَعْنَبِيّ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ قَيْسٍ، بِهِ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ وَشُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ الْأَقْمَرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الفُحْش، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ والشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أهلكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا". وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، كِلَاهُمَا عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرّة، بِهِ.

وَقَالَ اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ [بْنِ الْهَادِ] عَنْ سُهَيل بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أَبِي يَزِيدَ، عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ اللِّجْلَاجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول: "لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ودخانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا".

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ،

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ هَلَكْتُ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وَأَنَا رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا أَكَادُ أَنْ أُخْرِجَ مِنْ يَدِي شَيْئًا! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَيْسَ ذَلِكَ بِالشُّحِّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، إِنَّمَا الشُّحُّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَأْكُلَ مَالَ أَخِيكَ ظُلْمًا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْبُخْلُ، وَبِئْسَ الشَّيْءُ الْبُخْلُ"

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي". لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَلْ"، وَإِذَا الرَّجُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا إسماعيل ابن عَيّاش، حَدَّثَنَا مُجَمع بْنُ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيُّ، عَنْ عَمِّهِ يَزِيدَ بْنِ جَارِيَةَ، عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَالَ: "بَرِيء مِنَ الشُّحِّ مَن أَدَّى الزَّكَاةَ، وقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ".

هذه الآية الكريمة ختمت بهذا الوصف بعدما مدح رب العالمين الأنصار بأنهم أهل الكرم وأهل الجود، وأنهم جادوا بما في أيديهم مع طهارة قلوبهم، وأنهم وصلوا إلى حد أن يؤثروا غيرهم ولو كانوا في أشد الحاجة، أخبر -عزَّ وجلَّ- أن الطريق للوصول إلى هذه المرتبة واضحة، والطريق هو: أن يوقى الإنسان شح نفسه. السؤال هنا: من يقيني شح نفسي؟ ما يقيني إلا الله، كيف أصل أن يقيني الله شح نفسي؟ أن أظهر لله كراهيتي للشح وبغضي له، وأن أظهر لله رغبتي أن أكون من أهل العطاء ومن أهل السخاء؛ لأن أمام الشح السخاء. ربما سأل أحد: ما الفرق بين البخل والشح؟ البخل ثمرة الشح، الشح يأمر بالبخل. الشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه؛ لذلك لما أورد ابن كثير هذه النصوص بيّن أن الشح قرين الظلم، كما في الحديث "إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلم ظلماتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُحَّ، فَإِنَّ الشّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ واستَحلُّوا مَحَارِمَهُمْ". الظلم والشح قرينان بحيث أن الإنسان بسبب الشح وبسبب أنه حريص على شيء ليس له، فيصبح شحيحًا، يذهب يقاتل ليأخذ من أيدي الناس ما بيدهم وهذا يسبب الظلم؛ لذا تسمع هذا الحديث المخيف أنه لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا، فكلما زاد الإنسان

طمعًا فيما عند الناس، ونظرا إليهم، كلما نقص الإيمان من الجهة الأخرى؛ لأن المؤمن يعرف أن الأرزاق بيد الله، وأن الأمر أمر الله وأن العطية من الله. فحين لا يفكر في أن يدعو "يا رب ارزقنا، يا رب أعطنا، يا رب وسع علينا" ؛ ينظر للناس ويطمع فيما في أيديهم ويمد يده إليهم، هذا كله دليل على أنه ناقص إيمانه، ويكاد يكون قد زال إيمانه.

أما الرجل الذي جاء إلى عبد الله بن عمر وقال له: "إني هلكت وإني شحيح" وهلكت لأنه قرأ الآية، قال له: "إن هذا ليس شحًا" كونه يملك شيئًا لكن لا يخرجه ليس هذا هو الشح، بل الشح أن يصل الإنسان إلى طلب مال غيره، قال: "إِنَّمَا الشُّحُّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَأْكُلَ مَالَ أَخِيكَ ظُلْمًا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْبُخْلُ، وَبِئْسَ الشَّيْءُ الْبُخْلُ" ليس أهون من الشح، وفي أصح ما يقال إن البخل ثمرة الشح. والإنسان حين يبخل بما في يده يكون أصلًا خائفًا على المال، وخائفًا على أن ينقص، فدائمًا يفكر في هؤلاء الذين عندهم، ويمكن أن يفكر في أن يعمل حيلة ليأخذه منهم، أو يعتدي عليهم ليأخذه منهم، فالبخل ثمرة الشح.

باب الشح والبخل، الذي يقابله السخاء والإيثار، باب مهم من أبواب إصلاح النفس، لكن مبدأه سؤال الله طهارة القلب، ومبدأه سؤال الله أن يقينا شح أنفسنا. وهذا الذي نُقل عن عبد

الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- أنه كان يطوف في البيت ولا يزيد على: "اللهم قني شح نفسي" سبع أشواط وهو يقول هذا، فقيل له في ذلك فقال "إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَلْ"؛ لأن الإنسان حين يشح نفسه ويصبح الطمع طريقه؛ كلما رأى بابًا من أبواب الشهوات ولج فيه! يشح أن غيره يتمتع بكذا وهو لا يتمتع، وهو لا يستطيع أن يدخل هذا الباب لأنه لا يملك، ووضعه كذا، فيدخله من الحرام.

نختم بمثال لأن هذا موضوع مهم، في أحيان كثيرة تجد المرأة أن من حولها يعيشون في حال هي تتمناها، تسمع من جاراتها أو زميلاتها أحوالًا جيدة من أزواجهم، وهي لا تجد هذه المعاملة من الزوج -مثلًا-، أو ليست ذات زوج، في هذه الحالة تثار النفس أنها تريد أن تشارك هؤلاء فيما هم فيه، أو تفعل مثلهم وهو غير متوفر لها، ففي هذه الحال يمكن أن تسلك طريقًا محرمًا من أجل أن تعيش أو تسمع أو تتمتع كما يتمتع هؤلاء، مما تسمع من أقوالهم وتعرف من أحوالهم، فهذا هو كلام عبد الرحمن بن عوف: "إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَلْ" فالشح باب إذا فتح على الإنسان أورده المهالك، يجعل الإنسان يقارن نفسه ويرى من كان له نصيب في الدنيا من أي شيء، يشح عليه في هذا

ويريد أن يشاركه. ولا يعالج مثل هذه الأحوال إلا الرضا بما قسم الله والطمع فيما عند الله.

نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يطهر قلوبنا وأن يجعلنا من أهل الإيمان والتقوى، وأن يجعل الدنيا -التي هي رحلة قصيرة- رحلة مباركة علينا، ويحسن لنا الخواتيم، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.